الفساد.. يعم العالم

بعد عيسى عليه السلام.. وبعد فترة من رسالته التى أراد بها أن يعيد للشريعة الموسوية أصولها.. وجاء بالإنجيل ليتمسك به المؤمنون.. إلا أن الناس سرعان ما عادوا إلى الضلال.. الإنجيل تحول إلى أناجيل.. فقد غيروا فيه وبدلوا.. وظهرت عشرات الأناجيل.. وأقرت الكنيسة أربعة أناجيل فقط هى بولس، ومتى ويوحنا، ومرقص، وكان هناك إنجيل برنابا الذى أمر البابا جلاسيوس بإلغائه.. وقد كان هذا الإنجيل الأخير الذى تم إلغاؤه قبل ميلاد النبى عليه الصلاة والسلام بطريقة مباشرة كما ينفى ألوهية المسيح.. ومن أجل هذا قررت الكنيسة منع تداوله.

إن المسيح قد تنبأ بأن النبوة ستخرج من دائرة بنى إسرائيل إلى أمه أقدر على حفظها ونشر دعوة الله فى مختلف أنحاء الدنيا فهو يقول: «الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب، كان هذا وهو عجيب فى أعيننا، لذلك أقول أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل على إثماره».

ولكن الناس أصموا آذانهم عن تلك النبوءة، وسولت لهم نفوسهم ما يرضى نزواتهم.. وحرفوا الكلم عن مواضعه.. وألهوا عيسى.. ولم يقل عيسى قط عن نفسه أنه ابن الله أو إنه إله.. ولم يقل شيئاً عن الثالوث (الأب.. والابن.. وروح القدس) لم يقل أى

شيء من هذا.. ومن هنا انحرفت الدعوة.. وحاد الناس عن دعوة عيسى عليه السلام..

وقد عطل جلاسيوس إنجيل برنابا.. وهو أحد حواريى الرسول فى عام ٤٩٢.. وهذا التاريخ كان قبل ميلاد النبى عليه الصلاة والسلام بتسع وسبعين عاما.. هذا الإنجيل يقول على لسان عيسى عليه السلام: «فلما كان الناس قد دعونى الله، وابن الله، على أنى كنت بريئاً فى العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أننى أنا الذى مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة، وسيبقى هذا إلى أن يأتى محمد رسول الله، الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله».

وهذا يعنى أن المسيح ينفى عن نفسه الألوهية، وينفى عن نفسه الصلب.. ويبشر بدعوة محمد عليه الصلاة والسلام. وفى إنجيل برنابا نقرأ أيضاً: «إنى أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض إنى برىء من كل ما قال الناس عنى من أنى أعظم من بشر، لأنى بشر مولود من امرأة، وعرضه لحكم الله. أعيش كسائر البشر عرضه للشقاء العام».

والقرآن الكريم ينفى عن عيسى عليه السلام أنه ادعى أنه إله أو ابن إله..

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ

إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ [المائدة:١١٦ - ١١٨].

ولكن أى اجتراء هذا على التوحيد.. ما جاءت رسالات الله إلى الأرض منذ آدم إلى محمد عليه الصلاة والسلام إلا بالتوحيد.. ما من نبى تجاسر على الله وادعى شيئاً من هذا الذى افتراه الناس بعد عيسى عليه السلام.

المنطق يرفض أن يكون الله ثالث ثلاثة.. والعقل يرفض هذه الخرافات، أو هذا التخيل السخيف.

إن عيسى وجه أبصار الناس وعقولهم إلى الحقيقة الكبرى إلى الإيمان المطلق بالله وبرسله.. لم يقل لأحد أن يعبده.. ولا أمر بذلك.. ولكن يبدو أن حب الناس للسيد المسيح جعلهم يتناسون أنه نبى بشر فألهوه.. نسوا منطق العقل وانساقوا وراء العاطفة.. ولكنهم بذلك ارتكبوا إثماً كبيراً.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ [المائدة: ٧٣-٧٥].

المهم أن العالم سادته جاهلية غريبة.. فبعد أن انتشرت المسيحية وغزت الدولة الرومانية نفسها مما اضطر «دقلديانوس» أن يؤمن بالمسيحية، ويعلنها ديناً رسمياً للدولة بعد أن أعدم «نيرون» المسيحيين بالجملة، وقتل بولس مع من قتل من المسيحيين ثم جاء بعد فترة من الزمن الامبراطور «قسطنطين» الذى وجد أن المسيحية قد انتشرت فى كل أنحاء الامبراطورية الرومانية وأعلن مبدأ التسامح الدينى..

وكانت المسيحية قد دخلت مصر على يد القديس «مرقص» وهو الذى أسس الكرازة المرقسية.. وكانت مصر قد شهدت الأهوال عندما اضطهد «دقلديانوس» المسيحيين المصريين.. وكثرة ضحاياه من الشهداء.. وسمى هذا العصر فى مصر عصر الشهداء.

والغريب أنه ظهر قسيس فى مصر وهو القس «أريوس» الذى قال إن عيسى نبى، وليس إلها، وثارت عليه الكنائس واستعدوا عليه سلطة الدولة، وعقد مؤتمر «نيقيه» دعا إليه الإمبراطور قسطنطين لمناقشة هذه الدعوة الجريئة التى يدعو إليها «أريوس» ولم يدع أريوس بشىء إلا بعودة الإيمان ببشرية عيسى، وتصحيح العقيدة.. والرجوع

إلى المنبع الأول.. إلى الحق.. وأخذ قسيس مصرى آخر وهو «أثناسيوس» وكان خطيباً ماهراً يسفه أفكار أريوس.. ولكنه لم يستند إلى الإنجيل.. ولا إلى المنطق.. ولكنه خاطب العواطف.. وما أسهل التأثير على العواطف.. وإذا بالمجمع ينتهى إلى قرار.. والقرار هو أن طبيعة السيد المسيح طبيعة «إلهية بشرية!»

ولكن كيف يكون المسيح إلهاً وبشراً.. وفسرها «أثناسيوس» تفسيراً غريباً.. إن طبيعته الإلهية ترجع إلى طبيعة أبيه فى السماء، وطبيعته البشرية ترجع إلى طبيعة أمه مريم وهى البشر!!

وهكذا أصبح عيسى فى رأيهم يحمل طبيعة الإله وطبيعة البشر!!

وجاء رجل مصرى آخر بعد فترة من الزمن وهو القسيس «لوقيوس» الذى حاول أن يعيد الناس إلى الصواب. وأخذ ينادى بما نادى به أريوس بأن المسيح بشر.. وخشى الإمبراطور الرومانى أن يحدث بلبلة بين المسيحيين، وتضطرب الفتن بين الطوائف المسيحية، فأعلن «الأورثوذكسية» عقيدة الامبراطورية الرومانية الشرقية كلها.. وعاد الناس للاعتقاد بأن المسيح له طبيعة إلهية وأخرى بشرية!

وبعد فترة قام «نسطور» رئيس الكنيسة البيزنطية ينادى من جديد ببشرية المسيح، وثارت عليه كنيسة الاسكندرية وعقد مجمع مقدس فى مدينة أفسوس (سنة ٤٣١ميلادية) وانتهى بطرد نسطور من الكنيسة وتجريده من مناصبه الدينية!

لقد شغل الجدل الدينى العالم.. وعاش العالم فى فوضى عقائدية بعد أن حرفوا الإنجيل والتوراة.. كما أن العالم عانى فى نفس الوقت من الطغيان السياسى.. فروما تسيطر على معظم أنحاء العالم المعروف.. وتحكم الشعوب بقوة النار والحديد.. وهناك دولة الفرس التى احتلت هى الأخرى طريقها فعبدت النار من دون الله.. وحكمت مناطق من العالم واستعمرته وكوت أهله بالظلم والطغيان..

بينما انعزلت الجزيرة العربية بعقائدها الدينية بعد أن نست دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.. عبدوا الأصنام والتماثيل، واتخذوا أربابا من دون الله.. وعبد البعض منهم النجوم، وكانت هناك قلة من المسيحيين، وبعض اليهود فى يثرب، وقليل من الحنفاء الذين عبدوا الله على دين الخليل.. ولولا جدب الصحراء لخضعت هذه البلاد لنفوذ وسيطرة إحدى الدولتين الكبيرتين دولة الفرس أو دولة الروم.. فطبيعة الصحراء القاسية، وقلة الخيرات فى هذه الأراضى التى لا زرع فيها ولا نبات.. جعلتها بمنأى عن أطماع الفرس أو الرومان.. فما هى الفائدة التى تعود عليهما من استعمار أرض ليس فيها من الثروات ما يكفى ليسيل لها لعاب المستعمرين.. وأهلها لا يعرفون إلا الرعى، والتجارة.. والذهاب للتجارة فى رحلة إلى اليمين، وأخرى إلى الشام.

لقد عاشت هذه البلاد شبه مستقلة عن القوتين الكبيرتين فى العالم فى ذلك الزمن، ولكنها فى نفس الوقت عاشت تحت وطأة

تقاليد سخيفة لا معنى لها فهم يقتلون البنات خوفاً من الفقر، ويتعاملون بالربا، ويعتدى القوى على الضعيف، وترتفع الرايات الحمر على بعض البيوت وهى ما يسمى حديثاً باسم «بيوت الدعارة» حيث تمارس تجارة الجنس.. وانتشرت الخمور، واستبد القوى بالضعيف.. وليس معنى هذا أن مجتمع الجزيرة العربية كان مجتمعاً لا يعرف إلا هذه الصور البذيئة من صور الحياة.. فقد كانت هناك النخوة العربية.. والشجاعة.. وكان هناك أربعة أشهر حرم يحرم فيها القتال، ولكن الحياة بصورة عامة كانت قائمة.. فالفرق شاسع بين الذين يملكون والذين لا يملكون.. والرق سمة من سمات هذا المجتمع ولا حقوق لهؤلاء الأرقاء.

وباختصار فقد عاش العالم فى جاهلية.. ابتعدوا عن ديانات الله.. حرفوا الكلم عن مواضعه.. عبدوا الأوثان.. حقوق الإنسان ضاعت وسط تقاليد وعادات تهرأت وشاخت.. أصبحت صورة كئيبة مظلمة وكأن البشرية تعيش تحت وطأة ليل كثيف الظلام.. وكان لابد للصورة أن تتغير كلها.. لابد من خريطة جديدة للعالم.. تختفى منها كل ما يعوق الإنسان عن الانطلاق نحو حياة أكثر سعادة وأملا وإشراقا.. ويأتى عصر جديد.. يعرف فيه الإنسان ربه وخالقه.. وواهبه الرزق والحياة.. يعرف الإنسان فيه أن لهذا الكون إلهاً واحداً أحداً فرداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

يعرف الإنسان فيه الطريق الذى يؤدى إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، والطريق الذى يؤدى إلى جهنم وبئس القرار.

يعرف الإنسان فيه أن له حقوقا وأن عليه واجبات.. تجاه ربه، وتجاه نفسه وتجاه مجتمعه.. وأن له أيضاً حقوقا لابد أن توفرها له تعاليم تلك الرسالة السمحة التى تربط بين الأرض والسماء، وتسمو بالإنسان وترتفع به من الأوحال إلى سمو عالم روحى مثالى عظيم.

كان لابد لوجه المجتمع القديم الذى شاخ وتهرأ أن يتغير ليحل محله قيم جديدة.. وعلاقات إنسانية أكثر نبلاً.. ويعيد للناس جلال الاتصال الروحى بالله.. وكانت دعوة محمد عليه الصلاة والسلام.. وكان الإسلام..

* * *